المحور الثالث ـ ميادين الابستملوجيا

(علاقة الابستملوجيا بالعلوم الاخرى)

أولا ـ علاقة الابستملوجيا بالفلسفة الوضعية:

ترجع علاقة الابستملوجيا بالفلسفة الوضعية إلى الاسهام الذي قدمه أوجست ونت من خلال محاضراته في الفلسفة الوضعية والذي بدأ في الظهور منذ عام 1826 و يعتبر أحد المؤلفات الاساسية المبشرة بمبحث الابستملوجيا كما نعرفه اليوم ، من جهة أخرى نحن نتفق في الرأي مع ما سبق أن لاحظه الدكتور محمد وقيدي ، من أن عبارة لالاند السابقة والتي يقول فيها << أن الابستملوجيا ليست تأليفا أو استباقا حدسيا للقوانين العلمية على طريقة الفلسفة الوضعية ، لم تكن عبارة موفقة ....>> فهذا التعريف قد جانب الصواب في تحديد العلاقة بين الابستملوجيا و الفلسفة الوضعية من جانب ، كما أنه أخطأ في فهم حقيقة الفلسفة الوضعية في علاقتها بالعلم من جانب آخر.

2 ـ مفهوم الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت:

أ ـ من هو أوجست كونت:

فيلسوف و رياضي (1798-1857) أول من أطلق مصطلح علم الاجتماع على العلم الجديد ، وهدفه دراسة الكائن الاجتماعي دراسة علمية لإصلاحه وذلك لأن الوضع المجتمعي في أوروبا خلال القرن 19 عرف تغيرات جذرية نذكر منها:

ـ قيام الثورات البرجوازية وعلى رأسها الثورة الفرنسية التي إطاحة بمؤسسات المجتمع القديم وتبنت مفاهيم جديدة منها ، التأكيد على حقوق الإنسان وقيم المواطنة وعلاقتها بالدولة.
ـ بروز دور الفرد الفاعل كشكل مميز للمجتمع الصناعي الأوروبي .
سيادة الاتجاه الفكري النقدي الذي ينطلق من الفاعل الفرد وهو المفهوم المركزي الذي نمى مع فلسفة الأنوار.

ب ـ الفلسفة الوضعية عند كونت:

تقوم الفلسفة الوضعية عند أوجست كونت على فكرة اللحمة التي تحكم الجسم الاجتماعي ، وتتمثل هذه اللحمة في الأسرة كوحدة مجتمعية رئيسية تربط بين عدة أفراد في وحدة عضوية متماسكة تتعدى التجاور والتجمع بين أجزائها ، حيث يستبعد كونت الفرد كوحدة للدراسة فهو يرى انه يجب الانطلاق من الكل إلى الجزء وليس العكس ، أي أن أجست كونت قد تأثر بالنزعة البيولوجية فهو يرى أن الخلية ليست العنصر الأساسي في تكوين كل كائن ، بل الجسم هو الوحدة الأساسية غير القابلة للانقسام والتفكك إلى مجموعة من الخلايا .

حيث تحكم هذه الأجزاء علاقة عضوية محددة هي التي تحدد هوية الكائن المنظور إليه في انتمائه إلى جنس من الكائنات وليس كفرد معزول عن نوعه ، فهدف أجست كونت من خلال دراسته للمجتمع هو اكتشاف قوانين النظام الاجتماعي الذي يحافظ على استقرار وثبات المجتمع من خلال الدراسات العلمية والفكر الوضعي الذي يعتمد على المعرفة العلمية للوقائع والظواهر.

ج - مراحل تطور الفكر الاجتماعي :

يرى بأن المجتمعات تطورت وفق تلك المجهودات الفكرية التي يبذلها الأفراد لفهم وتفسير العالم الذي يحيط بهم ، وعليه يحدد ثلاث مراحل هي:

المرحلة اللاهوتية: الدينية

قسم هذه المرحلة أو الحالة إلى مرحلة الوثنية ومرحلة تعدد الآلهة ومرحلة الإله الواحد.

المرحلة الميتافيزيقية :

من الناحية الفكرية سيادة الاتجاهات الميتافيزيقية ، حيث لا تفسر الوقائع والأحداث بإرجاعها إلى إرادات الآلهة وإنما تفسر بإرجاعها إلى مبادئ وفروض غيبية ، أما من الناحية المادية فقد غلب عليها الاتجاه التشريعي حيث تصبح الدولة الوحدة الأساسية ويقوم التنظيم على أساس جمعي.

- المرحلة الوضعية:

هي الدراسة العلمية لكل الظواهر الإنسانية وهي تسعى إلى إيجاد انسجام داخلي وتصور وضعي موحد للعالم يقوم على معطيات التجربة وحدها مع إقصاء كل العناصر الميتافيزيقية والتأملات اللاهوتية في التفكير ، يرى ***جوبلو*** :<< أن الوضعية تيار ضخم من الأفكار التي يعتبر فيها كونت ممثلا بارزا وأصيلا ، وهو تيار يتصل منبعه بعصر النهضة ، كان عليه أن يحدث الازدهار الضخم والسريع للعلوم المعاصرة >>.

كما يرى كونت أنه بقدوم المرحلة الوضعية تنتفي مشكلات الإنسان والمجتمع ، حيث يسود التفكير العلمي القائم على أساس الملاحظة والتجربة والمقارنة العقلية. وهنا تنتقل الإنسانية من حالة الإقليمية إلى الحالة العالمية ، وقد أرخ لبداية ظهور هذه المرحلة بقيام الثورة الفرنسية ، فهو يرى أن علم الاجتماع سيتطور مع الزمن وباستمرار البحث العلمي في المجال المجتمعي سيصبح علما له أصوله وتقاليده وقوانينه وفروعه.

د - أفكار أجست كونت:

يمكن تلخيص أفكار أجست كونت في النقاط التالية:

ـ دعا إلى تحقيق الوحدة الفكرية التي تقود إلى الوحدة السلوكية والمعرفية ، فتزاحم الفكر الديني والفكر العلمي هو أساس كل اضطراب وتمزق ويطلق عليه كونت ***<< حالة الفوضى العقلية>>*** ويرى أن مهمته تهدف إلى إزالة هذا الاضطراب وإعادة بناء نظام فكري عام.

ـ ربط كونت بين فكرتي النظام والتقدم رغم أنه ركز على فكرة النظام الذي يقوم على الاتساق العام في المجتمع ،فالإستاتيكا هي دراسة ارتباط الظواهر بعضها بالبعض الآخر ، وأن أجزاء المجتمع لا يمكن أن تفهم منفصلة عن بعضها ، كما لو كان لكل منها وجود مستقل .

ـ أشار كونت إلى مبدأ تساند الظواهر الاجتماعية ، كالنظم الاجتماعية والمعتقدات والأخلاق وغيرها....لذلك لا يمكن تفسير الظاهرة دون اكتشاف القانون الذي يربطها بالظواهر المتفاعلة معها .

ـ قاومت الوضعية كل فكر يخرج عن دائرة الحس فـ***الواقعية*** هي السمة التي ميزة الوضعية واستعملتها كسلاح أيديولوجي ضد الفكر غير الواقعي أو الميتافيزيقي .

ـ إن الظواهر الاجتماعية تخضع لقوانين ومبادئ عامة هي قوانين طبيعية ومن ثم فهي تخضع للبحث العلمي.

2 - علاقة الفلسفة الوضعية بالابستملوجيا:

أ- علاقة الفلسفة بالعلم :

يرى كونت أن العلم هو تلك المعرفة التي بلغت آخر مراحل تطورها وهي المرحلة الوضعية ، وبعد أن يكون العقل الانساني قد تجاوز المرحلة اللاهوتية و المرحلة الميتافيزيقية ، داخل هذا الميدان المحدد أو ذاك من ميادين المعرفة ، فالعقل الانساني قد دأب على إعطاء تفسيرات لاهوتية أو ميتافيزيقية مفارقة لشتى ظواهر العلم في

المرحلتين السابقتين من مراحل تطوره فإنه يكف عن هذا في المرحلة الوضعية ، تلك المرحلة التي يبدأ فيها بتفسير الظواهر العلمية تفسيرا عليا ، من أجل التوصل الى اكتشاف القوانين الواقعية الثابتة التي تنظم هذه الظواهر وتتحكم فيها .

فالمعارف العلمية التي أنتجتها المرحلة الوضعية هي عبارة عن العلوم الجزئية الخاصة ، حيث يصبح كل علم من هذه العلوم مستقلا بذاته ، إذا استطاع أن يحقق تراكما كميا معرفيا وإذا تمكن بنجاح أيضا من تطبيق المنهج الوضعي في دراسة الظواهر المختلفة ، وهذه العلوم الخاصة هي التي تكون نسق المعرفة العلمية ، كما يمكن أن نستنبطه من تصنيف أوجست كونت و ترتيبه لعلوم عصره ، و النتيجة التي يمكن أن تترتب على هذا أن العلوم الجزئية المتخصصة هي بنت العصر الوضعي ونتاجه الخالص ، بل إن المعرفة التي تصطنع الفلسفة الوضعية لا تعتبر عند كونت بمعرفة علمية على الاطلاق .

ب ـ تحديد علاقة الفلسفة الوضعية بالابستملوجيا :

يمكن تجديد هذه العلاقة من خلال محاولة أوجست كونت نفسه تلاشي النتائج السيئة التي تمخضت عن دعوته الفلسفية في ميدان العلوم ، وعليه فالمتتبع للنتائج المختلفة لتأثير لروح الوضعية على شتى العلوم في القرن 19 يستطيع تصنيفها إلى نوعين :

ـ النتائج الايجابية :

كون التقسيم المنظم المتخصص للمعارف قد سمح بنمو أسرع للمعرفة في شتى ميادينها ، فالعلوم الجزئية التي أنتجتها المرحلة الوضعية أصبحت ذات موضوع معروف و معالم محددة ، بعد أن كانت تعاني من الغموض والعمومية ، التي تتميز بها المراحل السابقة على المرحلة الوضعية .

ـ النتائج السلبية :

ترتبت هذه الحالة عن التخصص الضيق التي جاء بها العصر الوضعي ، وتفسير ذلك أن حالة الانغلاق شبه الكامل التي عاشها أصحاب التخصصات العلمية المختلفة داخل علومهم ، جعلتهم مقطوعي الصلة بما يجري داخل التخصصات المجاورة .

ج ـ أزمة الأسس في العلوم :

في نهاية القرن 19 وبداية القرن 20 أصبحت هذه النتائج السلبية هي الطابع العام للمعارف الانسانية ، حيث لاحظ العلماء في شتى فروع العلم أن علومهم قد توقفت عن التطور أو كادت ، فبانغلاق داخل التخصص الضيق وقطع الصلة بحركة التطور داخل نسق المعرفة نفسه .

د ـ حل أزمة الأسس في العلوم :

وهو محاولة إقامة صلات من نوع جديد بين شتى فروع المعرفة الانسانية ، ففروع العلم الجزئي المعيش غالبا ما تمتد وتتشابك مع جذور علم أخر فأساس العلم في نهاية الأمر يقع خارج العلم نفسه ، وكان من نتائج هذه الأزمة المشهورة ،أن رد العلماء بعض العلوم إلى بعضها الآخر مثال :

ما انتهت إليه جهود كل من **ديد كند** و **فريجة** و**بيانو** و **رسل** وغيرهم من رد الرياضيات إلى المنطق ، بمعنى أن أسس أو أصول الرياضيات إنما توجد ممزوجة و متداخلة مع أسس و أصول المنطق نفسه .

2 ـ الفلسفة الوضعية و أزمة العلوم الوضعية :

من خلال النتائج السلبية للعصر الوضعي أو الدعوة الوضعية في ميدان العلم ، يرى كونت أن الفلسفة الوضعية يجب أن تنهض بمهمة الحفاظ على النتائج الايجابية للعصر الوضعي ، دون الوقوع في الحظر الذي يهدد تقدم المعرفة الانسانية ، من جراء استمرار تقسيم و تجزيء هذه المعرفة يقول كونت : << و حيث أنه لا يمكن الرجوع إلى الحالة السابقة على قيام التقسيم لأنه أصبح ضروريا ، فإن الحل لا يكون إلا بالمضي في التقسيم و بخلق اختصاص جديد يضاف إلى الاختصاصات الأخرى في نسق المعرفة الوضعية ، غير أن موضوع هذا

الاختصاص الجديد ليس موضوعا معرفيا جديدا ، بل هو العلاقات بين الميادين المعرفية الأخرى ، والفلاسفة الذين سيقومون بهذا الاختصاص الجديد فئة جديدة من العلماء ذات تكوين خاص ، يهيئها لئلأ تهتم بالتفصيلات الخاصة بكل ميدان ، و أن توجه انتباهها بالدرجة الأولى إلى ربط كل اكتشاف جديد بمجموع المعارف الوضعية ، وذلك لكي تحول دون أن يؤدي الاهتمام بالتفصيلات إلى عدم إدراك المجموع .

وغني عن البيان أن الفلسفة الوضعية هي التي ستضطلع بمهمة هذا التخصص الجديد الي يتحدث عنه كونت : << فهي التي ستهتم بدراسة العموميات المتعلقة بجميع العلوم ، تلك العلوم التي تخضع لمنهج واحد و التي تعتبر بمثابة أجزاء لخطة دراسية عامة >> ويصبح تطور العلوم الوضعية المتخصصة مشروطا بوجود مثل هذه الدراسة .

3 ـ الفلسفة الوضعية و القوانين العلمية :

لا يمكن أن تكون الفلسفة الوضعية هي تركيب أو استباق حدسي للقوانين العلمية ـ كما جاء في عبارة لالاند السابقة ـ فكونت لم يلقي على عاتق فلسفته الوضعية مهمة التأليف بين النتائج أو قوانين العلوم المختلفة ، فهذه المهمة لا تستطيع أي فلسفة أن تنهض بها ، كما أن كونت لم يشأ أن تكون فلسفته الوضعية استباقا حدسيا للقوانين العلمية ، إن كل ما ذكره كونت من مهمة جديدة لفلسفته الوضعية هي : << دراسة العلاقات الكامنة بين شتى العلوم ، و الاهتمام أساسا بالعموميات العلمية دون الدخول في التفصيلات ، لأن هذه الاخيرة تدخل ضمن الاهتمامات الخالصة للعلماء أنفسهم >> إن المهمة الجديدة للفلسفة الوضعية هي أقرب إلى التفسير النسقي للعلوم ووضع تصنيف لها واستخلاص الدروس التي تستفاء منها من أجل الاصلاح الثقافي و الاجتماعي .

4 ـ بين الفيلسوف الوضعي و الابستملوجي :

يرى كونت أن مفهوم الفلسفة الوضعية و علاقتها بالعلم غير مقطوعة الصلة بالتفكير الابستملوجي ، فالمهام بينهما هي نفسها ، فالفيلسوف الوضعي ـ كما يراه كونت ـ هو نفسه الابستملوجي ، أي أن الفلسفة هي شرح أو توضيح إبستملوجي ، أليس هدف الفلسفة الوضعية الأول أن تجد في النسق المعرفي الذي يحكم تطوره مبدأ الحتمية التاريخية (قانون المراحل الثلاث) مجموعة من العلاقات الخارجية والداخلية في نفس الوقت ، بمعنى أن تجد أساسا للوقائع الخارجية و أساسا للمبادئ المنطقية الداخلية التي تستند إليها العلوم ؟

فإلى أي مدى يمكننا حقيقة تمييز الفلسفة الوضعية عن الابستملوجيا ؟